رأي القدس

المسلمون لا ينتحرون

■ تواجه الرواية الرسمية الامريكية حول «انتحار» سعوديين ويمني من المعتقلين في غوانتانامو الكثير من الشكوك من قبل محامين وهيئات حقوقية وانسانية دولية، والاعتقاد السائد انهم قضوا تحت التعذيب.

فرضية الانتحار مستبعدة لان الثلاثة مسلمون، والمسلم لا يقدم على الانتحار، لان الاسلام يحرمه، ويعتبر من يقدم عليه كافراً وخارجاً عن ملّة الاسلام والمسلمين.

والغالبية الساحقة من معتقلي غوانتانامو هم من المسلمين الاصوليين، وهؤلاء يعرفون اصول عقيدتهم، ويحفظون القرآن عن ظهر قلب، وعلى دراية كاملة بتفسير آياته، واحاديث الرسول (صلى الله عليه وسلم).

والتعذيب ليس جديداً على الادارة الامريكية، فقد مارسه سجانوها في سجن ابو غريب في العراق، مثلما مارسوه في معتقل غوانتانامو نفسه، وتحدث المفرج عنهم من هذا المعتقل عن قصص تعذيب مرعبة، نفسياً وجسدياً، تعرضوا لها اثناء فترة احتجازهم.

المعتقلون في هذا السجن غير الشرعي يواجهون ظروفاً نفسية صعبة، فهم سجناء منذ اربع سنوات ونصف السنة، دون ان تتكون لديهم اي فكرة عن جريمتهم، ناهيك عن عقوبتهم، ودون ان يتمكنوا من الدفاع عن انفسهم امام قاض، ويعيشون ظروف اعتقال مهينة بكل المقاييس الانسانية.

الادارة الامريكية الحالية تقول انها لن تفرج عن هؤلاء الا بعد انتهاء الحرب على الارهاب، وهذا يعني بقاءهم خلف القضبان لعدة سنوات قادمة، خاصة ان المسؤولين الامريكيين قالوا ان هذه الحرب ربما تستمر لاكثر من خمسين عاماً.

نداءات كثيرة وجهتها الامم المتحدة ومنظمات انسانية عديدة تؤكد عدم شرعية هذه الاعتقالات وتطالب بالافراج عن المعتقلين فوراً، او تقديمهم الى محاكمات عادلة، ولكن الادارة الامريكية ترفض هذه النداءات، وتصر على الابقاء على هذا المعتقل الذي يشكل وصمة عار في جبينها، وينسف كل ادعاءاتها حول الديمقراطية وحقوق الانسان والقضاء العادل المستقل.

بعد انفضاح امر حالات الانتحار المزعومة هذه، يجب ان يتحرك العالم بأسره لاجبار الادارة الامريكية الحالية على التراجع عن هذا الخرق الفاضح لحقوق الانسان واغلاق معتقل غوانتانامو فوراً ودون اي تأخير.

الاتحاد الاوروبي شريك الولايات المتحدة الامريكية الرئيسي في الحرب على الارهاب يجب ان يقوم بالدور الاكبر في هذا الخصوص، ويتخذ من قمة فيينا المقبلة المناسبة لبدء تحرك قانوني وسياسي لوضع حد لمأساة اكثر من اربعمئة معتقل، الغالبية الساحقة منهم ابرياء لم يرتكبوا اي جريمة غير كونهم من المسلمين الذين تواجدوا في افغانستان ساعة وقوع الحرب.

المطلوب لجنة تحقيق دولية تنبثق عن الامم المتحدة، تبحث ظروف هؤلاء خلف القضبان، وعمليات التعذيب النفسي والجسدي التي يتعرضون لها حتى يعرف العالم الوجه الحقيقي لهذه الادارة الامريكية، وانتهاكاتها الفاضحة لحقوق الانسان التي تعتبر اهم مرتكزات الحضارة الغربية وقيمها.

صفقة بوش ـ طهران: انطلاقاً من «رَسْمَلة» الحرب الأهلية لكل منهما؟

مطاع صفدي *

■ حديث اللحظة السياسية الراهنة عالمياً، ولدى جماعات التفكير وأندية القرارات الدولية العليا ليس في واشنطن وحدها، بل في أهم عواصم أوروبا أيضاً، إنما يدور حول محور مركزي يتخطى مناكفات التحدي النووي الإيراني، إلى ما يعتبر الأساس والمنطلق، إلى معضلة الأمريكي مع العراق، في وجهيها: الغزو والانسحاب. وكان الأول وليد عملية قيصرية على المستوى الدبلوماسي مع أرباب المجتمع الدولي، وبخاصة مع الشركاء التقليديين لأمريكا، بينما تحقق احتلال العراق بسهولة سريعة في بدايته على أرض المعركة؛ وأما الوجه الآخر فلم ينتظر نهاية الشوط والمآل التركيبي لكل عقابيل الغزو حتى تتشكل ملامحه الكارثية، ويتم الإعلان عن إفلاس مشروع الامبراطورية عينه، بألسنة زعمائه وعلى الملأ. فقد استمع العالم كله إلى اعترافات دون كيشوت العصر وصاحبه خادمه كما في الرواية الأصلية تماماً، لكن بوش وبلير لم يقرأ سطراً واحداً من سفر الندم لطلب المغفرة من أحد، بل جاء الاعتراف العلني بنبوة الصلف والاعتداد عينها التي صاحبت إعلان النصر من فوق البارجة المشؤومة عشية سقوط بغداد في أيدي مغول القرن الواحد والعشرين.

سرد لائحة (الأخطاء) كما سماها الخاطئان الكبيران النموذجيان، بينما هي عين «الجرائم العظمى بحق الانسانية» المنصوص عليها في شرعة الأمم المتحدة. هذا السرد، المستقوي بارتكاباته، لا يطلب عفواً أو غفراناً من أحد، بل يتحدى ضحايا الأمس بضحايا اليوم والغد. يستهتر بشهود العالم جميعاً، بوش لا يبشر بأجندة انسحاب للعدوان، بل يلوّح به كإنذار، من النوع الكارثي، موجه إلى جميع الأطراف، محلياً وإقليمياً ودولياً، ملقياً عليهم دفعة واحدة مسؤولية التدبر به، والغوص في معضلاته العملياتية والاستراتيجية؛ بدءاً من التهديد بالحرب الأهلية التي يعمل الاحتلال، بالجهد المدروس والمنظم، على اصطناع عواملها الزائفة، وإعداد ظروفها المخططة، وإطلاق المزيد من شرارتها كل يوم ليعم الحريق الشامل كل مناحي الوطن العراقي المنكوب وما حوله. إذ أن الفارق بين هذه الحرب الأهلية وما سبقها في المنطقة العربية، وفي لبنان بخاصة، أن هذه اللبنانية بقيت محصورة ضمن حدود البلد الذي اندلعت فيه، بينما يُراد للاقتتال المذهبي في بلاد ما بين النهرين أن يخترق نحو كل المساحات الوطنية الأخرى ذات التنوع المذهبي المماثل، في الخليج والجزيرة، وينحرف غرباً نحو البركان الهامد مؤقتاً في لبنان، والمترقب لدوره في سورية.

في هذه الحالة هل ينتقم الغزو لفشله بتعميم التهديدات بالخراب البنيوي، وتعليق أوان التنفيذ في ساعة كل قطر على حدة، ويمسي هو نفسه غزوة بين الغزوات. ضائع الوجه والهوية في زحمة الاقتتالات المحلية والإقليمية، مسيطراً وحيداً على مقدرات المنطقة كلها، من منابع النفط وشرايينه إلى مصباته، مبدداً أية حدود أو حواجز تعيق أوبئة الخراب عن اكتساح آخر مواقع موانع الوطنية عند هذا الطرف أو ذاك.

المشكلة مع بوش وبطانته، كما بات يعرفها القاصي والداني، من أمريكا إلى أنحاء المعمورة، أن هذا الرئيس كلما اعترته نوبة اعتراف بالخطأ فإنه لا يصلحه إلا بخطأ أكبر وأدهى غالباً. لا قيمة عملية إذن لجلسة الاعتراف التي مثلها هو وشريكه بلير، وملء شاشات العالم كله، بل إن الأمر الوحيد والمتوقع، حتى لدى أهم الدهاة من خبراء (مؤسسة الحكم)، من أمثال كيسنجر وبريجنسكي، هو أنه لم يعد ثمة خيار آخر أمام أمريكا، وفيما يخص مستقبل وجودها نفسه، سوى المضي في المشروع الإمبراطوري إياه، ومهما تعرض لعثرات في التخطيط أو التنفيذ. وجوهر اعتراض هذه الزمرة من بناة الإستراتيجية الأمريكية إنما ينصبّ فقط على سوء التقدير المسبق للمقاومات غير النظامية التي قد يفجرها استخدام القوة المفرطة في غير مجالاتها الضرورية، مع ما يصاحب هذا الاستخدام من التفنن في إبراز وقاحة الصلف والاستكبار وإذلال الآخر، حتى المستسلم أو المحايد؛ وبالطبع لا يتناول النقد شبه الرسمي ذاك، والإعلام الرئيسي، إلا بعض (انحرافات) الممارسة، وفشل الاحتلال، ليس في إنجاز التدمير الشامل، المتحقق في كل المستويات، بل في استيلاد بدائل الخراب المباشر، بالرغم من كل ادعاءات التقدم في (العملية السياسية).

ما أنجزته هذه (العملية) البائسة حتى اليوم، هو محاولة التعويض عن انهيار الدولة العراقية والتعمية على تداعيات الانهيار، باختلاق صيغ لحكومات، لا تحكم بقدر ما تقضي على بقايا الدولة وخصائصها، كحفظ النظام العام، وضبط الأمن المدني، وتأمين أبسط الخدمات الحياتية والاجتماعية للشعب المنكوب. وهكذا فإن الاعتذار عن الأخطاء بالاعتراف بها لا يمكنه أن يلغي كونها جزءاً لا يتجزأ من أجندة الاحتلال المدروسة والمقررة، بل إنها صاحبتها عبر مختلف بنودها واحداً تلو الآخر. فمنذ البداية كان هناك ذلك الاصرار الخبيث على عدم الفصل بين النظام والدولة. بل بدا الأمر أن المقصود المركزي هو أن إسقاط نظام الحكم وسيلة محتومة للإجهاز على الدولة. بما يعني أن زوال الدولة، بما هي كيان وسيد مشروع تاريخياً ودولياً، قد مهد السبيل سريعاً إلى فرض الدستور التقسيمي.

ثم جاءت المهمة الثانية والأصعب، المتمثلة في تفكيك شرائح الشعب عن بعضها، بعد أن تم تجهيز القوالب الدستورية بانتظار أن تمتلئ بوقائع الشرذَمة المجتمعية والشعبية على الأرض. فكان لا بد من وقوع الحرب الأهلية واصطناعها اصطناعاً بكل الوسائل والتكتيكات المعروفة في صناعة القتائل المعمم. وبسرعة النار في الهشيم انطلق سعار التقاتل الأهلي، بأفظع أدواته: التذابح (على الهوية) وتعميمه بين كبرى المذاهب والقوميات. وتحطيم مكونات التعايش العضوي والتاريخي، باستعداء الجميع على الجميع. صارت الحرب الأهلية حقيقة كل يوم مع أرقام ضحاياها، ونماذج فظائعها. فهي المقرر لها أن تملأ بنود الدستور التقسيمي. أن يباح لها (دستورياً؟!) القيام بكل العمليات القذرة، الواردة في قاموس الافناء المتبادل، ما بعد القتل والتعذيب الى التهجير والتطهير المذهبي والعرقي، الى عزل مجاميع الشعب في غيتوات جغرافية، سوف تُسمى أوطاناً لها، تقيم كياناتها المغلقة، وتنشئ دويلاتها التي لن تعترف ببعضها، وسوف تنشب بينها كل الصراعات العقيمة حول كل شيء، من ثروة الوطن إلى مشكلات الحدود الوهمية فيما بينها.

الاقتتال الأهلي فاقد لأسبابه الموضوعية أصلاً، لكنه يشكل بنداً مركزياً في برنامج الغزو، مهما حاول الغزاة التبرؤ من تبعاته. فما أن طرحت الانتخابات على قاعدة الدستور الانفصالي والعنصري، حتى خلقت معاركها السياسوية عنفاً فئوياً بعد أن حُصر التنافس بين المرشحين على أساس انتماءاتهم المذهبية والعرقية. ما يعني أنه لم يُسمح بإطلاق هذه العملية السياسية المزعومة إلا على قاعدة إلغاء مؤسسات الحياة المدنية للمجتمع، وتمكين الزعامات الدينية السابقة واللاحقة من الإمساك بناصية السلطة على المستوى الحكومي والشعبي، وتحت رعاية الاحتلال دائماً.

لقد طبق الغزو الأمريكي أعتق أجندة لأقدم المناهج الاستعمارية، المشتقة كلها من المذهب الاستراتيجي ذي الأطروحة الواحدة، وهي العمل على حرمان الشعب المستعمَر (بفتح الميم) من التشكل البنيوي كمجتمع مدني قابل للانخراط في عملية التحديث والانضمام إلى ثقافة العصر من حوله في العالم. ومن المعروف أن العراق كان واحداً من أقطار العرب القليلة السباقة إلى الشروع في هدم هوة العجز المتوارثة، الفاصلة بين شكل التكوين التقليدي، والعبور الصعب نحو إعادة التكوين الذاتي حسب النموذج العصري. فالاحتلال يقضي على الدولة ومقوماتها. ومن ثم تتكفل الحرب الأهلية بتصحير شامل لأسس الوحدة الوطنية من جهة، وللمعالم الحضارية والإنسانية من جهة ثانية. فالتطهير المذهبي والعرقي يسبقه ويرافقه اجتثاث مختلف النخب العلمية والمهنية، وتشتيت الفئات المتقدمة والمتحركة من كافة القطاعات العامة. إنها نظرية إتلاف المواقع المدنية للطبقة المتوسطة المنوط بها دور القاطرة لمسيرة التقدم. فالتهجير القسري والإرهابي على قدم وساق داخل الوطن وخارجه. يتكامل مع وباء القتل الفردي والجماعي يومياً. كل الكوارث أمست مباحة، بل منظمة بإيقاع أهوال متجاوبة بفظائعها؛ ما يؤكد، على عكس ادعاءات قادة الغزو في بغداد وواشنطن ولندن، من أن الأمور أفلتت من أيدي مهندسيها ومنفذيها وحراسها من زبانية الخراب المبرمج. فالأمور تلك لا تفلت إلا ليعاد ضبطها، وتفاجئ الضمير العالمي بأبشع الفظائع غير المسبوقة.

إن مسرحة الأهوال الكلية، المبرمجة، والمتآخذة الحلقات والمهمات، لم تعد تُظهِرَ أفعال الغزو وحيدة، بدون شراكات كانت خافية أو مبطنة تحت جلد الاحتلال. فضلاً عن شراكات الداخل المحليين من أصناف العملاء والأعوان وتجار الموت والفساد. هنالك الشراكة الأكثر التباساً وأخطاراً مع الجار الإيراني الذي تتقاطع استراتيجيته خاصة مع خطة الغزو من البداية، إلى أن يكتشف الأمريكيون فجأة أن هذه الاستراتيجية ربما كانت هي الأذكى أو الأخبث، إذ استطاعت أن توظف معظم مكاسب الغزو والاحتلال في خانتها. كما لو أن جيوش واشنطن ولندن عملت بكل جهد على إزالة العدو الأول لطهران، استنابت قواها لتحقيق ثأرها الذي عجزت الخمينية عن محوه منذ حرب الثماني سنوات ورصيدها من المليون قتيل ومعاق. بينما كانت دبابات العم سام تجوب شوارع بغداد، راحت جيوش إيران المذهبية، ومن النوع الآخر تكتسح البلد من قواعده الشعبية.

إذا كان ثمة حديث عن أخطاء الغزو، وبحجم الكوارث الاستراتيجية الكبرى، فهو أنه مضطر في النهاية عندما سيسحب جيوشه من أرض الرافدين، إلى تسليم مفاتيح البلد إلى الجار الإيراني، وقد أمسى هو بدوره العدو الأول المنافس لمشروع الأمبراطورية، والطالب بحصته من السيطرة على القارة العربية الاسلامية من لبنان وسورية إلى حدود الهند والصين. ولكن من يقول أن العم سام سينصاع إلى الصفقة الكسراوية تحت عنوان التهديد النووي، وقبل أن ينجز استجرارها إلى الغرق أكثر في عمق المستنقع العراقي... وسواه من المستنقعات المذهبية المتاحة وحولها في جغرافية المشرق وخليجها العربي بخاصة.

* مفكر عربي مقيم في باريس

السعودية: تدوين التراث الشعبي تمهيدا لاختلاسه

د. مضاوي الرشيد *

■ يعرف التراث الشعبي على انه الحاضن لذاكرة الامم ومعظم هذا التراث يتم تناقله بطريقة شفوية وعفوية. عادة يخزنه الكبار في السن الذين يوصلونه الى الاجيال اللاحقة. اشتهر هذا التراث في منطقة الجزيرة العربية حيث اصبح مصدرا من مصادر التاريخ الذي يعتمد عليه الكثير من الباحثين في ابحاثهم التاريخية التي تعنى بالشأن الاجتماعي والسياسي والاقتصادي وكذلك امور تتعلق بتعاطي المجموعات البشرية مع محيطها وبيئتها الجغرافية والطبيعية. يخزن هذا التراث مرويات تتعلق بالعلاقة بين الافراد والمجموعات كذلك تخزن هذه القصص المعرفة الشعبية المتعلقة بالحرف والصناعات وطرق توفير العيش وتكنولوجية الانتاج. كذلك تحتضن المرويات الشفوية قصص العلاقات السياسية واخبار النصر والهزيمة وكذلك اخبار الخيانة والمقاومة الى ما هنالك من امور تتعلق بكون الانسان مخلوقا سياسيا يخضع لانماط مختلفة من الهيمنة او الولاء او الاحلاف ويعبر عن ذلك من خلال التراث.

بحكم كون هذا التراث الشعبي تراثا شفويا فهو بطبيعته يصعب تدوينه واحتواؤه من قبل من يريد ان يفعل ذلك.

يتجاوب هذا التراث مع الحاضر وتعاد صياغته حسب الظروف التاريخية، يلجأ لهذا التراث القوي والضعيف، الكبير والصغير المستبد والمستبد به. لذلك هو ينمو ويتكاثر ويزدهر في المراحل العصيبة وكذلك مراحل الرفاهية والرخاء، مثلا نجد ان تجربة الرقيق ارتبطت بازدهار مرويات شعبية متناقلة شفويا من قبل العبيد في مختلف انحاء العالم كذلك نجد ان المهيمن سياسيا او اجتماعيا يطمح لتدوين هذه الهيمنة عن طريق كتابة الارث الشعبي وابعاده عن عفويته المرتبطة بلحظة السرد.

عندما يصبح هذا التراث شأنا مرتبطا بأجهزة الانظمة الحاكمة تحت عنوان الابحاث نستطيع ان نجزم ان المشروع يسخر لاهداف سياسية مركزية بحتة تنطلق من احتياجات النظام السياسي وليس من الرغبة النزيهة لتدوين التراث الشعبي للمناطق المختلفة التي يتكون منها بلد ما. وهذا بالفعل ما يحدث الآن في السعودية حيث نجد ان احد اجهزة النظام السعودي انيط به مهمة تدوين هذا التراث. عندما تصل يد النظام الى التراث الشعبي بحجة تدوينه نعتقد اننا وصلنا الى مرحلة السيطرة على الذاكرة التاريخية لكل منطقة.

الانظمة الشمولية تصرف الملايين ليس فقط من اجل السيطرة على الحاضر بل هي تشتاق الى السيطرة على الماضي عن طريق عملية انتقائية للتراث. هذه العملية ذات هدف واحد هو اسقاط المرويات التي تشكك في مشروع النظام ورؤيته للماضي والتي يبني على اساسها شرعيته فتختفي المرويات من دواوين النظام وتمحى المقولات الثائرة المقاومة لانواع الهيمنة بكافة اشكالها. تسقط اسماء كثيرة لرواة وغزاة ومقاومين ولا تظهر الا قصص المطبلين المنبطحين للهيمنة السياسية والذين يضفون الشرعية على هذه الهيمنة.

يأتي مشروع تدوين التراث الشعبي في الجزيرة العربية في مرحلة يبدو فيها النظام انه فقد المصداقية التي بموجبها هيمن على عقول ابناء المنطقة. فراح يبحث عن سالفة في كل المناطق تحت ذريعة الحفاظ على هذه السوالف من الضياع والاندثار تحت ضغط المدنية الحديثة والتغييرات الاجتماعية السريعة. مؤخرا حسب مراسل وكالة انباء رويترز وصل تدوين التراث الى اطراف المملكة خاصة منطقة الشمال بالقرب من الجوف وسكاكا المعروفة بتراثها الشفوي الفني والمتنوع ويبدو ان هناك مخططا لتدوين القصائد والمرويات الشعبية في مناطق المملكة الاخرى. سيأتي النظام بالرواة ليسردوا قصصهم ومن ثم تدون هذه القصص في مجلدات ضخمة تتصدر صور امراء الثقافة الصفحات الاولى من هذه المجلدات بالاضافة الى بعض الكلمات المصفوفة التي تؤرخ للدور الثقافي لمثل هذه الشخصيات التاريخية وجهدها في سبيل عدم ضياع الذاكرة التاريخية المحلية تمهيدا لعملية اختلاس الذاكرة.

كثير من السوالف والقصائد لن تجد طريقها الى هذه المجلدات الخضراء وستبقى هذه السوالف حبيسة الذاكرة الشعبية ترددها السنة الكبار على مسامع الصغار في الاجتماعات الشعبية وفي المدن والواحات والاستراحات. ستتجاوزها المحاولات الرسمية لتدوين الارث الشعبي لانها تعري المقولات الرسمية وتشكك في مصداقيتها.

تؤرخ المرويات الهاربة من سوط الرقيب المدون لحقبات تاريخية لا يريد النظام ان يعترف بها بل يفضل ان يمحيها من الذاكرة التاريخية الجماعية كما محى الاثار والمباني التي تذكره بتاريخ آخر طمسه وقضى عليه تحت سلسلة طويلة من الذرائع.

فبعد هدم المباني والآثار جاء اليوم دور هدم الذاكرة الشعبية تحت ذريعة الحفاظ عليها. مشروع تدوين الموروث الشعبي هو مشروع اختلاس للماضي وتقييده وحصره في مجلدات النظام. عندما يبحث النظام السعودي عن سالفة يدونها سينسى الكثير من السوالف الاخرى التي تفضح زيفه وزيف الرواية التي استطاع ان يحفرها في مخيلة الجيل الذي وقع في قبضته عن طريق كتب التاريخ ذات المروية الواحدة التي تطمس مرويات الشعب بكافة اشكالها وانواعها.

تدوين التراث الشعبي في السعودية خطوة تمهد للسيطرة ليس فقط على الماضي وانما الحاضر والمستقبل. يأتي هذا التدوين في لحظة هشاشة النظام والذي لم يعد يستطيع ان يستهلك الدين في مشروع ارساء شرعيته لذلك هو اليوم يبحث عن اساطير شعبية عله بذلك يحفر اسمه في الذاكرة التاريخية الشعبية بعد ان انهارت مقولاته السابقة.

فبعد ان تشدق بالطهورية والصفاء على مستوى العقيدة والممارسة نجده اليوم قد تعرى من كل نقاء وسقط في وحل السياسة ورمالها المتحركة واحلافها المتغيرة. وها هو النظام اليوم يلهث وراء اللسان الشعبي عله بذلك يلتقط قصيدة مدح واطراء تلفظها شفاه رواة الجزيرة ذوي اللهجات المحلية فتجد سوالفهم طريقها الى موسوعات النظام الجديدة والتي ربما في المستقبل القريب تستخدم كجزء من المناهج التعليمية او كبديل للفكر الديني والذي هو في طريقه الى الانقراض خاصة بعد ان وصلت يد الرقيب الامريكي ومقصه الى اكثر صفحات هذا الفكر.

عملية اختلاس التراث الشعبي عن طريق تدوينه من قبل الاجهزة الحكومية التي تخلط بين البحث والمباحث والذاكرة والنسيان هي عملية سياسية بحتة ذات اهداف واضحة اهمها التأصيل للهيمنة الحالية تحت ذريعة الحفاظ على التراث من الضياع. المدنية والتمدن لا تؤديان الى اندثار الذات الشعبي. ما يؤدي الى الاندثار هو سوط الرقيب والمدون الآتي من العاصمة الرياض. سيحتفل هذا المدون كالعادة بأسماء البعير والنياق ونغمات الربابة والمهباج وبيت الشعر ومحتوياته وصناعة النعال والحبال وربما وشم النساء ووضع الحنة على اليدين والكعبين. وربما يذكرنا بتدوين قصصنا الشعبية التي تدين ماضينا وتصورنا كعبدة اوثان واصنام واشجار ثم سيبحث عن سوالف عودتنا وهدايتنا الى الطريق المستقيم على يد «طلائع التوحيد» في القرن العشرين.

ما هي السوالف التي سيتجاوزها مدون النظام السعودي؟ وما هو التراث الذي سيبقى رهينا وحبيسا في الذاكرة التاريخية الشعبية ولن يسلم نفسه لسجن الموسوعات القادم؟

التراث الذي سيستثنيه مدون النظام له طابع خاص في كل منطقة من مناطق الجزيرة وعند كل قبيلة من قبائلها وواحة من واحاتها. هل سيدون المدون قصص جدات وامهات الاحساء الشيعيات عن اميرهم السعودي والذي وصفه امين الريحاني بأن اسمه تحول الى فزاعة تستحضرها الأمهات لتخويف الابناء المشاغبين خاصة بعد مشروع «اسلمة» المنطقة منذ عام 1913، هل سيدون المدون في حائل مثلا قصص جده المناضل ناصر السعيد الذي اقتنص في بيروت عام 1979 واختفى حتى هذه اللحظة. هل سيدون تراثها وسوالفها عن قصص المساجد التي استبيحت وكأنها بؤر كفر وشرك. وفي القصيم هل سيدون المدون مذبحة عالم يدعى ابن عمر والذي سقط رأسه لا لسبب الا لانه رفض الهيمنة السياسية المتمسحة بالدين. وفي بلاد غامد وزهران هل سيدون المدون كيف جوعت المنطقة وخلت الحقول من سنابلها وتحول سكانها من الانتاج الزراعي الى عسكر للسلطان. هل سيدون المدون تراث عبد الرحمن الشمراني وغيره ممن رفض التسلط. وفي الحجاز ماذا سيدون المدون؟ واي تراث شعبي سيسجل خاصة بعد محو المباني والاثار التي وقفت شاهدا على تاريخها. هل سيدون قصص حرق المكاتب والكتب ام التسلط على اعلامها ورموزها.

سيصاب مدون النظام بمرض فقدان الذاكرة عندما يحل ضيفا على مناطق الجزيرة المتنوعة التراث والتاريخ. سينسى المدون قصائد القبائل التي هجرت من ديارها لا لسبب الا لانها رفضت اشكال التسلط المختلفة ومصادرة الارض ومن عليها وما فيها من ارزاق. سيتجاوز المدون ذلك التراث الذي يؤصل لهجرات قسرية متلاحقة ليس تحت ضغط الجفاف ورياح الخماسين بل تحت ضغط القهر السياسي والاكراه الديني الذي ارتبط بمرحلة تأسيس ما يسمى بدولة التوحيد. هل سيدون المدون تراث الانسلاخ عن الوطن والارض وقصائد الحنين الى الاهل ام انه سيتجاهل كل هذا التراث ويذكرنا بملحمة التوحيد المزورة التي اخفى ضجيجها معاناة شعب كامل فرض عليه الخنوع والتبعية بدلا من العزة والاباء؟

سيبقى التراث الحقيقي مدفونا في الذاكرة لكنه لن يقبل بعملية الاختلاس الجديدة والتي تأتي تحت ذريعة الحفاظ عليه من النسيان. ستهرب ذاكرة ابناء الجزيرة من موسوعة النظام للتراث الشعبي لانها تقبع في المخيلة الخصبة الحاضنة لمرويات قديمة يصعب طمسها او اختلاسها من اكبر دور البحث والمباحث.

* كاتبة واكاديمية من الجزيرة العربية

معتقل المنطقة الخضراء

يحيى اليحياوي *

■ عندما دخلت القوات الأمريكية بغداد عام 2003، أطلقت العنان لشتى ضروب النهب والسلب والتدمير وحرضت «الجماهير الغاضبة» على استهداف كل ما يرمز إلى «عهد الديكتاتورية» أو يمثلها أو يوحي إليها جوهرا أو بالمظهر.

كان كل شيء ببغداد، في صبيحة اليوم إياه، يشي بفوضى عارمة استبيحت في ظلها كبرى مرافق الدولة العراقية ومآثر حضارة الرافدين ولم يسلم من أذاها إلا ما قامت على حمايته قوى الاحتلال وحالت دونه ودون بلوغه من لدن «الغوغاء».

بالتزامن مع ذلك، اختارت القوى إياها لنفسها، بقلب بغداد، «مجالا ترابيا» كان من ذي قبل (من قبل الاحتلال أعني) مجالا سياديا بامتياز حيث المجمع الرئاسي الذي من بين ظهرانيه كان الرئيس العراقي يباشر قيادة البلاد ويتدبر شؤون محافظاتها.

لم تطلق قوى الاحتلال على المجال إياه تسمية «المنطقة الخضراء» جزافا، بل لكونه يضم مساحات شاسعة من الحدائق والبساتين تقدر سعتها الإجمالية بحوالي عشرة كيلومترات مربعة.

هي عبارة عن فضاء مستطيل يحده من الشرق نهر دجلة ومن الغرب حديقة الجندي المجهول ومن الجنوب جسر 14 تموز ومن الشمال جسر الجمهورية الذي أقيم تيمنا رمزيا بسقوط النظام الملكي في العام 1958.

لم تختر قوات الاحتلال المنطقة الخضراء (يطلق عليها من لدنهم أيضا المنطقة الدولية) اعتبارا فقط لتميز موقعها أو للهيبة الرمزية التي مثلتها زمن الرئيس صدام حسين، بل وبالأساس للإيحاء المادي المباشر بأن مركز المنظومة السياسية التي كانت تجسدها المنطقة من ذي قبل قد تهاوى وولى بدليل السيطرة على أقوى معاقلها واشدها تحصينا على الإطلاق.

وعلى الرغم من التحصينات الكبرى التي كانت، قبل سقوط بغداد، مقامة لحماية المجمع (بحكم التواجد الرسمي لأركان الدولة به)، فإن الاحتلال عمد إلى تشديدها وتقوية الحراسة على مداخلها برا وجوا ومن الداخل أيضا. فشيد بذلك (من حولها) جدارا إسمنتيا بعلو أربعة أمتار متعذر الاختراق وأقام بداخلها الحواجز المتعرجة وأحاط الكل بشبكة من الأسلاك الشائكة وأجهزة الرقابة الالكترونية وعشرات الدبابات المدججة بالرشاشات الثقيلة وكفل أمر تسييرها لشركة خاصة (كلوبال ستراتيجيز غروب) هي ذاتها التي تسير مطار بغداد (مطار صدام الدولي سابقا).

قد تبدو المنطقة الخضراء (على الأقل للناظر من الخارج) قلعة عسكرية محصنة لا يلجها إلا من توفرت لديه بطاقة ما أو احتمى بترخيص. لكنها أكثر من ذلك بكثير بحكم حساسية المرافق المقامة بجوفها وطبيعة المهام المناطة بها وهي «قلب الدولة الجديد» بكل الأحوال:

ـ فهي تضم سفارتي قوى الاحتلال (السفارة الأمريكية اتخذت لها مرافق القصر الجمهوري إمعانا في الإهانة) وسفارة إسرائيل، ومقار إقامة العديد من السفراء وجنرالات الاحتلال وخبرائهم ومستشاريهم وطواقم إداراتهم ومترجميهم وخدمهم واختصاصي تسليتهم بنواد للترفيه والتسلية بكل اللغات والألوان.

ـ وهي تضم مقار الحكومة التي نصبها الاحتلال (الوزارات الحساسة قبل غيرها) وغرفة «البرلمان المنتخب»، و«رئاسة الجمهورية» ومقرات العديد من «الأحزاب السياسية» ومعظم فضائيات «العهد الجديد» وما سواها.

ـ وهي تضم، فضلا عن كل ذلك، فندق الرشيد الشهير و«المحكمة الجنائية» التي أقامها الاحتلال لمحاكمة الرئيس صدام حسين ونفر من رفاقه على وقائع منتقاة ودونما مراعاة لحصانته أو لواقع الاحتلال الذي ترزح البلاد تحت وطأته.

لا يعرف المرء بالضبط كم هي نسبة الكثافة السكانية بهذه المنطقة (يوجد بها ومن حولها أكثر من عشرة آلاف جندي) ولا جنسية العديد من قاطنيها ولا هوية العديد من الوافدين إليها ليل نهار، ناهيك عن المهمات الموكولة إليهم وهكذا. لكن المؤكد حقا أن قادة الاحتلال المباشر والمتعاونين معهم هم الذين يقررون من داخل هذه المنطقة، في حال ومآل ما يفوق الخمسة والعشرين مليون عراقي.

وإذا كان من غير المبالغ فيه القول بأن المنطقة الخضراء إنما هي دولة الاحتلال بامتياز، فإنه من غير المبالغة أيضا القول بأنها نادرا ما لا تتعرض لضربات المقاومة عبر الصواريخ أو بالعبوات الناسفة على مداخلها أو بالعمليات الفدائية التي يقوم بها عناصرها:

ـ فنائب وزير الدفاع الأمريكي (بول وولفويتز) افلت من موت محقق بفندق الرشيد حيث كان مقيما ولم ينفع في استهدافه لا الأسلاك الشائكة ولا كاميرات المراقبة ولا عشرات الجنود المحيطين بالفندق (توفي ضابط أمريكي برتبة عقيد في أعقابها).

ـ و«حكام العراق الجدد» لا يستطيعون التجول بالمنطقة إياها دونما حراسة شخصية مشددة ونادرا ما «يتجولون» بها دونما التفات ذات اليمين وذات اليسار، بل إن «رئيس جمهورية الاحتلال» لا يشعر بالأمان والاطمئنان إلا وهو ببلدته بكردستان.

ـ وبلوغها من لدن الزوار الكبار الخارجيين (أمريكان وإنكليز وغيرهم) غالبا ما يتم في السر المطبق وتجند له المروحيات عوض ولوج المنطقة من أحد مداخلها البرية المتعددة، بل إن اجتماعات «البرلمان» غالبا ما تسبقها إجراءات رقابة ومراقبة ندر مثيلها في «بلد مفتوح».

قد تكون منطقة المجمع الرئاسي خضراء حقا ببساتينها وحدائقها والمياه الجارية من بين أحضانها، وقد تكون مريحة بفضائها الشاسع ومكاتبها الرئاسية الفاخرة، لكنها تأكيدا سجن كبير تعتقل به المقاومة العراقية قادة الاحتلال والعملاء التي رضيت عنهم فأقامت لهم مقار ومساكن من بين ظهرانيها.

وعلى هذا الأساس، فإذا كانت قوات الاحتلال وعملاءها يدعون السيطرة على البلاد عبر سيطرتهم على المنطقة الخضراء، فإنهم باتوا يدركون أن إقامتهم بالمنطقة إياها إنما هو من إقامة السجين بسجنه... والتحصينات المقامة من حولهم إنما هي أولا وبالمحصلة النهائية من حماية السجناء ليس إلا.

* كاتب من المغرب

القدس العربي
يومية سياسية مستقلة
تطبع في لندن ونيويورك وفرانكفورت وتوزع في جميع انحاء العالم
الاشتراكات:
الاشتراك السنوي 450 جنيها استرلينيا في عموم بريطانيا و 750 دولارا امريكيا للوطن العربي وخارج بريطانيا بما في ذلك اجور البريد.

الناشر:
مؤسسة القدس العربي للنشر والاعلان

رئيس التحرير:
عبد الباري عطوان

المقر الرئيسي (لندن): 164/166 كنج ستريت، همرسميث، لندن دبليو 6 او كيو يو
هاتف: 8008 741 ـ 0208 (6 خطوط) ـ
فاكس: 8902 741 ـ 0208 أو 7637 748 ـ 0208
مكتب القاهرة: 43 أ شارع قصر النيل ـ الدور الاول ـ شقة رقم (2). هاتف/فاكس: 3901523(202)
مكتب المغرب: 80 شارع فال ولد عمير شقة 7 الطابق الرابع ـ الرباط. هاتف/ فاكس: 770594(37 212)
مكتب عمان: شارع الصحافة مجمع البداد التجاري الطابق الرابع.
هاتف: 5337920 فاكس: 5337928 (9626)
مكتب باريس: هاتف ـ فاكس: 57364 420 (331)

Al-Quds Al-Arabi
daily Independent News Paper
Published In London, New York and Frankfurt by Al Quds Al- Arabi Publishing LTD
Circulated in Europe, Middle East, North Africa and North America.
Editor In Chief
ABDEL BARRI ATWAN

Head Office (London): 164-166 King Street, Hammersmith, London W6 0QU England
Tel: 0208-741 8008 (6 Lines) Fax: 0208-741 8902 / 748 7637
email: alquds@alquds.co.uk * Internet: www.alquds.co.uk
Cairo Office: 43 a Kasser Al Neel St, First Floor, Flat No (2).
Tel/Fax: (202) 3901523
Morocco Office: 80 Fal Ould Omeir Str. Flat No.7 - Rabat - Morocco
Tel/Fax: (212 37) 770594
Amman Office: Al Sahafa St. Badad Business Complex.
Tel: (9626) 5337920 Fax: 5337928
Paris Office: Tel / Fax: (331) 420 57364